صناعة الإنسان

بقلم د. صالح الفهدي

الرؤية -الأربعاء 18 فبراير 2015م

يُواصل الأكاديميُّ والكاتبُ المعروفُ الدكتور سيف المعمري طَرْحَ أسئلته بعيدة الأثر، وهو المسكُون بقضايا الهُويَّة الوطنية واشتراطات التنمية الإنسانية، ليسأل في مقاله الأخير: أين هو الإنسان؟ سُؤال مؤرِّق كهذا يبدو للوهلة الأولى مسطَّحَ الفكرة، إلا أنَّه سؤالٌ جوهريٌّ تحتاج إلى الإجابة عنه كلُّ أمة تقصدُ التنويرَ، وترمي إلى التطوير؛ ذلك لأنَّ السؤال -بعيداً عن سياقه الفلسفي- سؤالُ تقييم لفعالية القوى البشرية في أثر المجتمع.

هذا السؤال دفعني للحديث عن المشروع النهضوي الذي يُعدُّ أولَ أهداف الدولة بمفاهيمها العصرية، ألا وهو مشروع "صناعة الإنسان". هذا المشروع الذي يُشكِّل عصبَ النهضة لأي مُجتمع حديث، هو الذي ترتبط به وعليه مصائر الشعوب والأوطان.

أقولُ في البدء: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"، فإنَّ المخرجات بقدر المدخلات، وأن الثمر بقدر الغرس، وعلى قدر الأهداف تحدَّد نوعية الإنسان الذي تُناط به مسؤولية التعاطي مع التطورات والمتغيرات التي ستمرُّ بها الدولة في مُختلف مراحلها التاريخية.

وعلى قياس المنظَّمات التي تحدِّد نوعية الوظيفة والفرد المناسب لها؛ فإنَّ البناء الأشمل والأعم للدولة يعتمد على الرأس البشري الذي يُعد أهم رأس مال على الإطلاق في بناء أي مشروع على أي مستوًى كان؛ لهذا ظهرت علوم إدارة وتنمية الموارد البشرية في جامعات العالم فأسَّست هذه العلوم لمشروع "صناعة الإنسان".

... إنَّ هكذا صناعة تستوجب تأسيسَ دعائم لا غنى عنها في الأطر المختلفة: روحيةً، ونفسيةً، وتربويةً، وثقافيةً، واجتماعيةً، وسياسيةً، واقتصاديةً. فعلى صعيد العلم المؤسِّس لصناعة الإنسان إداريًّا تختزل علوم الموارد البشرية بـ"تزويق" لافتات تعلق على أبواب المكاتب بعد أن انتزعت منها سابقاتها المعنونة بشؤون الموظفين، وكأن الأمر سيَّان..! هذا يستبقي الحال على وضعه؛ تغيرت العناوين على الأبواب ولم تتغير العقليات التي ستظل تدير بذات الأفكار، وتتعاطى مع ذات القضايا الإدارية الرتيبة؛ إجازات الموظفين، عقوبات التأخر ربع ساعة عن الدوام، تصاريح الاستئذان الموقَّعة من وكيل الوزارة، التقارير السنوية الباهتة، رفع المذكرات للوزير، التعديل في مسودات الرسائل المكرورة وهكذا..! في حين أن علم الموارد البشرية هو إستراتيجي، تخطيطي يوائم بين الإستراتيجية العامة للدولة أو الوزارة، وبين مستوى الكفاءة والقدرة التي يجب أن تكون عليها القوى البشرية لكي تضمن تحقيق الأهداف الإستراتيجية. لكنَّ اختيار الكفاءات يعتمد على مستوى القيادات التي عينت لإدارة المؤسسات ويمكن قياس مستوياتها بنوعية القوى البشرية التي حقنتها في أوردة العمل المؤسسي، إلى جانب الأهداف الإستراتيجية، والثقافة التنظيمية السائدة، وطرق الإدارة المتبعة وأدواتها وما إلى ذلك. وما لم تهتم الدولة بوضع القيادات الكفوءة المنتقاة بعناية في المناصب القيادية المناسبة فلن ترتجي ناتجاً حقيقياً يساهم في تقدمها وازدهارها. يقول مالك بن نبي في كتابه "شروط النهضة": "المسألة هي أنه يجب أولاً أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى"، هي إذن صناعة الإنسان القائد الذي يمتلك العناصر اللازمة لكي "يمشي في التاريخ" لا أن يقف ويجمد أمةً ووطنا معه!

ويُشكل الابتكار أساساً في صناعة الإنسان، كيف لا وهو العنصر الرائد الذي يطلق القدرات الكامنة إلى فضاء لا نهاية له؟! إنَّ الثقافة التي تعيق الإبداع هي ثقافة متقوقعة، ساكنة. منذ يومين دخل عليَّ ابني ذو الخمسة عشر عاماً قائلاً: أطلب منك أن تكتب في عدم اكتراث المدرسة بالإبداع، واسترسل قائلاً: لا توفر المدرسة للطالب الوسائل التي تهيِّئ له إطلاق خياله، وممارسة إبداعاته. لم أجبه وإنما فتحت له محاضرةً ألقاها التربوي الإنجليزي السير كين روبنسون (Ken Robinson) وعنوانها: كيف تقتل المدارس الإبداع؟! أقول: لا يمكن لأية دولة أن تنمو، ولا لأي مجتمع أن يتطوَّر دون إتاحة المجال للإبداع والابتكار كي يزدهر، وأن يصبح ثقافة مجتمعية. ولا غرابة في أن يرفع مؤتمر القمة الحكومية الثالثة الذي عقد مؤخراً في دبي الابتكار شعاراً للتقدم والتطور العصري. قال كين روبنسون المشارك في المؤتمر: "نحن

كائنات مختلفة، وحاجاتنا متنوعة، ومن حق كل منا أن يحصل على التعليم الذي ينفعه ويمكنه من الإبداع بدلا من التعليم الذي يضره ويجبره على الاتباع".

التعليمُ إذن قرينُ الإبداع، وما لم يكن كذلك فلا نفع فيه؛ لأنه علم يقيِّد المواهب، ويعيق إطلاق الخيالات، والتصورات.

... إنَّ توجيه الإنسان ثقافياً ليس خطأً كما يحسبه البعض؛ فالتوجيه في تعريف مالك بن نبي هو "بصفة عامة قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف" وما لم يكن هناك توجيه مترابط العناصر فلن يتحرك في مجرى التاريخ وإنما يراوح مكانه. لكن إن لم يقم التوجيه على عناصر ذات صلابة: تعليمية، تربوية، نفسية، ثقافية، تنموية واجتماعية، ويُقاس وفق معايير تقبل التقييم والمراجعة، كما يتابع عن كثب فلن يحقق أهدافه. فالتوجيه الاقتصادي لا يعود بنفع إن تخلف عنه توجيه الوعي المجتمعي، وتوجيه التعليم.

... إنَّ الخللَ الذي أصاب الإنسان في مجتمعاتنا هو الازدواجية، وهذا يعود إلى خلخلة في نظم صناعة الإنسان؛ فالازدواجية تتجلى في مناحي الحياة المختلفة وعلى صعد مختلفة مما نتج عنه اضمحلال في الشعور بالمسؤولية، وتفوق للتمظهر الزائف والاعتناء بالشكليات. هذا الخلل هو أحد نواتج صناعة الكلام التي تغلبت على صناعة الإنسان.

وصناعة الإنسان ترتكز على القيم؛ لأنه لا يُمكن صناعة إنسان دون قيم فاعلة ومؤثرة، تعمل على مواءمة التوازنات النفسية والفكرية والأخلاقية والشهوانية في شخصيته. يقول الإمام محمد الحسيني الشيرازي، في كتابه "فقه المستقبل": "القيم هي التي تسمو بالإنسان فوق الواقع، وتجعله متطلعاً، واعياً، مدركاً لمهام مستقبله؛ فالقيم تُخرج الإنسان من أفقه الشخصي المحدود -بل تخرجه من نصفية نظرته المحلية والموضعية وشبهها- إلى إطلاقية نظرته الإنسانية؛ لتشمل العالم الذي يعيش فيه". وللقيم أثرها على الواقع لأنها النسغ الذي يمده بالمعاني الإنسانية السامية، يكمل الإمام الشيرازي قوله: "عندما يتحقَّق التكامل بين الواقع والقيم تذوب الصراعات، وينتهي التنافس غير المشروع، وتعم العدالة، ويسود السلام، ويعلو صوت الحق، ويعيش الناس في طمأنينة وأمن، ويزدهر المستقبل يوماً بعد يوم".

في ظل المعطيات الإنسانية والواقعية التي تنبئ عن استفحال الازدواجية، فإنَّ صناعة الإنسان تعاني من اختلالات يُمكن تلمُّسها في التعليم إن أختزل السعي العلمي الدؤوب للشهادة والألقاب وليس لتحصيل المعرفة. إن كان لملء أوراق الامتحانات، لا لإطلاق العنان للقدرات. وفي بيئات العمل إن ساد فيها التواكل والمحسوبيات وانتشر الإهمال والرشوات، وفي تشدق من ينظر إليهم كقدوات بالقيم دون تطبيقات. وفي العملية الشوروية إن أصبحت من أجل الأموال والوجاهات لا من أجل العمل الوطني، وفي العمل التطوعي إن كان لأجل الظهور الإعلامي لا من أجل العمل الإنساني، وفي الدين إن رجحت كفة التمظهر على حساب التجوهر، وفي المناصب القيادية إن كانت لمجرد ملء منصب شاغر دون أن تكون لقيادة أصيلة لمنظومة عمل، وبناء إستراتيجية وتحقيق أهداف. وفي الثقافة حين تنعدم فيها التوازنات وتحل الأهواء كشعارات، وفي الحراك الأدبي إن كان أثره على الأرض ضئيلاً أو منعدماً، وفي الإعلام إن صَادَر قيمَ الحق والخير والجمال وأحلَّ محلها قيم السوق ومغريات الإبتذال، وفي الندوات والمؤتمرات إن كانت مجرد تظاهرات أكثر منها علاجات لمعضلات. وفي السياسات غير المثمرة، والخطب غير المؤثرة. وفي الألفاظ الخرقاء والسلوكيات الرعناء، وفي الأهداف الصغيرة المحدودة، وفي الأمنيات الحالمة المعدودة، في المذهبيات المقيتة والطائفيات البغيضة، والعصبيات العتيقة، وفي كل فاشل مؤيد يبتعثُ لنيل شهادة عليا، وفي كل مبدع مقيد يرى على أنه خطر محتمل..! وفي كل تكلف وتحذلق بالوطنية.

هذه -وشبهها تناقضات- إذا اتَّسع فيها الخرق على الراقع، فإنَّ السؤال: أين هو الإنسان؟ سيغدو مشكلاً حضارياً؛ لأنَّ صناعة الإنسان تغدو حينها مجرد صناعة كلام، وهدر وقت، وإعاقة أمة عن الحضارة؛ لأنها تفتقد إلى عوامل الدافعية الأصيلة: الرؤية البعيدة، والنية السديدة، والإرادة العتيدة، والابتكارات المفيدة، والإبداعات المجيدة.

http://alroya.om/ar/writer-blogs/124471